



## أدب المذكرات في التراث العربي

### قراءة في الثغر الجماني لابن سحنون الراشدي

#### The Literary Diary in the Arab Heritage A Reading of El-Thaghr El-Djoumani of Ibn Sahnoun Er-Rachidi

أ. د. حبيب بوزوادة\*

تاريخ الاستلام: 29. 04. 2020 تاريخ القبول: 23. 05. 2021

**الملخص:** تعتبر كتابة "المذكرات" جنساً أدبياً جديداً في الأدب العربي، فقد بدأت الكتابة في هذا الشكل الإبداعي في القرن العشرين، غير أنّ هناك العديد من الكتابات التراثية التي يمكن وصفها بأنها إرهاصات لهذا الجنس الأدبي الوليد، بسبب تمحورها حول المشاهدات الذاتية، حيث يتحوّل الكاتب إلى راوٍ، ينقل الواقع إلى القراء بوصفه شاهد عيان. وبمكّنتنا أن نجد هذا النمط الكتابي لدى المؤرخين والإخباريين وكتاب السير الذاتية، مثلما نلمس ذلك في كتاب أحمد بن سحنون الراشدي الذي وثّق يوميات الحملة العسكرية التي قام بها محمّد بن عثمان الكبير لتحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني، المسماة "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني".

**كلمات مفتاحية:** المذكرات؛ وهران؛ الأدب؛ ابن سحنون؛ الكتابة الذاتية.

**Abstract:** The « diaries » are considered as a new genre in the Arabic literature, this creative type appears in the twentieth century. However, number of early writings can be considered as the first bases of this new literary genre for the reason that it focused on self-observations. The writer becomes narrator, a witness who transfers the reality to the readers. This form of

\* مختبر اللسانيات العربية وتحليل النصوص، جامعة معسكر، الجزائر، البريد الإلكتروني:

[habibbouzouada@gmail.com](mailto:habibbouzouada@gmail.com) (المؤلف المرسل).

writing is present among historians, biographers and authors as Ahmed Ibn Sahnoun Er-Rachidi who related the military campaign carried out by Mohammed Ben Othman against the spanish colonialism to liberate the city of Oran, known as « El-Thaghr El-Djoumani fi Ibtissem El-Thaghr Al-Wahrani ».

**Keywords:** Diaries, Oran, Literature, Ibn Sahnoun, Self-writing.

**1. المقدمة:** رغم الأهمية التي حظي بها الشعر في موروثنا الأدبي القديم، إلا أنها لا تلغي حضور الأدب المنثور بأشكاله المختلفة، ومضامينه المتنوعة، فهو الأداة الأكثر قدرة على تحقيق البعد التواصلي للغة، كالخطب والرسائل على سبيل المثال وهو الوسيلة الفضلى للسرد القصصي، كما يتلاءم مع العلوم والمعارف فيمنحها القالب اللغوي الذي يصوغ نظرياتها، ويحتوي أفكارها ومفرداتها. فقد أنتج العقل الإبداعي العربي العديد من الألوان النثرية على مرّ العصور، بداية بالنماذج الكلاسيكية كالخطب والرسائل والأمثال والحكم، إلى التوقيعات، فالأشكال القصصية بأنواعها، وصولاً إلى النثر العلمي وما تفرّع عنه من المختصرات والمصنّفات التعليمية، لنصل في القرن الواحد والعشرين إلى التغريدات والرسائل الإلكترونية والمحادثة الرقمية.

وتعدّ المذكرات واحدة من فنون النثر المتولّدة عن التطور الأجناسي الذي أشرنا إليه، باعتبارها شكلاً من أشكال الكتابة عن الذات، حيث تعبّر عن حضور الذات في النصّ، بوصفها راوياً، يستثمر ذاكرته في كتابة شهادته، وتحويلها إلى خلق فني جديد أو قد تتحوّل هذه الذات إلى مكوّن خطابي ضمن الشخصيات التي تتألف منها المذكرات.

**2. التحديد الأجناسي:** إنّ نظرية الأدب الحديثة تتحدّث عن علم التناسل الأدبي حيث تنشأ أجناس أدبية فرعية جديدة من داخل الأجناس الأدبية الكلاسيكية، فمن رحم الملاحم اليونانية انبثقت الرواية، ومن القصيدة الشعرية العربية تفرّعت الموشحات والأزجال. وستظل هذه الصيرورة تحكم قواعد التناسل الأدبي عبر الزمن، لأنّ "إحدى القيم الواضحة في دراسة النوع هي بالضبط كونه يلفت النظر إلى التطور الداخلي للأدب"<sup>1</sup>.

لقد حاولتُ من خلال هذا التقديم أن أسلط الضوء على (الجنس الأدبي) بوصفه حالة متغيرة، قابلة للتنازل والتمظهر في قوالب فنية غير مألوفة، ملمحاً لظاهرة المذكرات في الأدب العربي، بوصفها شكلاً كتابياً طارئاً في تاريخ الأدب، لم يحظ بالأهمية اللازمة، ولا بالاعتراف من لدن الدارسين إلا في العصر الحديث، مع أنه كان موجوداً منذ القدم، ضمن أجناس أدبية أخرى. فقد حفلت الرحلات الأدبية والكتابات السيرية والرسائل بالكثير من المذكرات التي تؤرخ لليوميات، مما حولها في وقت لاحق إلى وثائق ذات قيمة تاريخية-أدبية.

فالكتابة المذكراتية هي معركة ضد النسيان، و ضد تجاهل الأحداث مهما تضاعل حجمها وتأثيرها. فالذكر في لسان العرب الحفظُ للشيء، والذكرى بالكسر نقيض النسيان<sup>2</sup>. والمذكرات هي مرويّات شخصية مدوّنة شهّد المؤلف أحداثها بنفسه، أو وقعت في حياته. إنها أدبٌ يقوم على تسجيل ما هو يومي عن مشاهدة، أو عن معاينة للأحداث والتحوّلات؛ عظيمة كانت أو روتينية. ويتكئ فن كتابة المذكرات على ما يمكن تسميته بأدب اليوميات (Journal literature) الذي يواكب الأحداث اليومية ويسجلها حال وقوعها لحظة بلحظة، غير أنّ أدب المذكرات يُكتب -في الغالب- متأخراً عن زمن وقوع تلك الأحداث معتمداً على فاعلية الذاكرة.

**3. أنواع المذكرات:** تختلف الكتابة المذكراتية بحسب مضمونها، وبحسب القضايا التي تطرحها، وهو ما يسمح -من الناحية المنهجية- بالحديث عن نوعين من المذكرات:

**1.3 المذكرات الشخصية:** وهي نمطٌ من الكتابة عن الذات يؤرخ للمحطات الأساسية في حياة مؤلفها، كذكريات الطفولة، وأهم التحدّيات التي واجهته في مسيرته ونجاحاته وخيباته، وبعض التفاصيل التي يكون قد مرّ بها. إنّها تشبه السيرة الذاتية غير أنها تختلف عنها في المنهج وفي الغاية. فالأحداث في السيرة الذاتية مترابطة وفق شرط التّداعي الزمّني، حيث تنمو بشكلٍ يحاكي الواقع ويمثّل تطوره في الحقيقة، أمّا الكتابة المذكراتية فإنها انتقائية، يتخبر فيها المؤلف أهم التفاصيل العالقة بذاكرته المؤثرة في وجدانه ومشاعره. بصورة تستهدف مشاركة هذه التجارب مع المتلقي، وتحويل النص المذكراتي إلى منظومة تفاعلية مع الجمهور اعتماداً على صدق المشاعر.

**2.3. المذكرات التاريخية:** تعتبر المشاركة في الأحداث التاريخية المهمة كالحروب، والثورات، والانقلابات العسكرية، والتحويلات الاجتماعية الكبرى فرصة ذهبية للشهود الذين يرغبون في تدوين تلك الشهادات من واقع قريبهم من الأحداث وصلتهم بصانعيها. فالتركيز على تسجيل الأحداث التاريخية ونقل مجرياتها (بأمانة) للأجيال اللاحقة هو الهدف الرئيس في المذكرات التاريخية، ولذلك قد تكون أحياناً مكتوبة بأسلوب بسيط وغير محترف، بل إنَّ عدم تمكّن كاتب المذكرات/الشاهد من فنّيات الكتابة يدفعه في الكثير من الأحيان إلى اللجوء إلى صحافي متخصص يسجّل مرويّات الشاهد في كتاب خاص.

4. لماذا نكتب المذكرات؟ إنَّ ظهور هذا الجنس الأدبي المنكفي على الذات يعود إلى أسباب عديدة أحاول أن أوجزها فيما يأتي:

**1.4. نزعة الخلود:** فالكتابة ضدَّ الموت، وهي حياة بديلة، لما تضمُّه من استمرارٍ وديمومةٍ للفعل الكلامي، لهذا يمكننا اعتبار المذكرات ممارسةً للحياة، وتثبيتاً لديمومة الذات في تحدي الخلود، فالمذكرات كُتبت لتبقى، وتستمر معها الحياة.

**2.4. أهمية اللحظة:** فالمذكرات نسقٌ ثقافيّ قد يبدو غير متجانس في ظاهره لكنّه -في العمق- وليدُ فكرة تقوم على تصوير الحوادث المجتزأة، مثلما رآها الكاتب وعابشها في الواقع، فالمذكرات لحظات مهزّبة من الواقع، لا تُعنى بالسياقات التاريخية أو بارتباط الحادثة بالحوادث المتسببة فيها، أو الناتجة عنها، فهي ليست كتابة تاريخية صرفة.

**3.4. النزعة التاريخية:** يشعر كُتّابُ المذكرات بأنهم مسؤولون أمام التاريخ على نقل شهاداتهم للأجيال اللاحقة، لذلك تجدهم يدونون مذكراتهم بعقلية الشاهد الذي يقف عند التفاصيل الدقيقة، والعلاقات المتداخلة، بحرصٍ شديد ودقّة متناهية، وأمانة عالية طلباً للكمال، وسعيّاً لتقديم شهادة متكاملة، يمكنها أن تصبح وثيقة في يد المؤرخين.

**4.4. تضخّم الأنا:** المذكرات كتابة تتبع عن نوات تتحلّى بالوثوقية، مؤمنة بقدرتها على العطاء والتعبير، لهذا ترفض البقاء على هامش الأحداث، فالذي يكتب مذكراته



قد لا يكون مشهوراً، لكنه -بلا شك- شخصٌ يعي جيداً دوره في الحياة، ومسؤوليته في الكتابة.

**5.4. حتمية البوح:** الكتابة في أساسها بوحٌ، وإصرارٌ على مواجهة الإكراهات الاجتماعية والثقافية والسياسية. عبر التفكير بصوتٍ عالٍ، فالكاتب يتحمل مسؤولية كبرى تجاه العالم، وهو لا يشعر بالزحمة النفسية إلا إذا تحرر من سطوة الكبت، وعبر عن آرائه بهذا الصراخ الجميل، الذي نسميه اصطلاحاً "الكتابة". وأدبُ المذكرات شكلاً من أشكال البوح وتقاسم الأفكار، فهو تحريرٌ للذاكرة، وتنفيسٌ عن الذات.

**5. الكتابة المذكراتية في التراث العربي:** لم تُعرف المذكرات كجنس أدبي مستقل إلا في العصر الحديث، أما قبل هذه الفترة فقد كانت المذكرات جزءاً من أجناس أدبية أخرى مثل:

**1.5. الرحلات:** فالمذكرات خطاب مندغم في الكتابة الرحلية، ثاوٍ في بنيتها الأساسية، وهو أهمّ مكوناتها، فلا قيامة للنص الرحلي بدون فعل التذكر، وبدون فعلٍ تسجيلي مدرك لأهمية اليوميات والتفاصيل الصغيرة. "فقد اتّصف أغلبية الرحالة -ولو بدرجات متفاوتة- بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق، كما حرص معظمهم على التفريق بين المشاهدة والزواية عند تسجيل معلوماتهم"<sup>3</sup>.

**2.5. السيرة الذاتية:** في التراث العربي رصيّدٌ سيريّ ضخم، يتحدّث أساساً عن الأنبياء والأئمة والعلماء والأولياء والأمراء والوزراء والقادة والفاتحين وغيرهم، ويدخل معظمها في السيرة الغيرية، أمّا كتابة السيرة الذاتية فتأخرت إلى العصر الحديث، عندما كتب طه حسين (الأيام)، والعقاد (أنا)، وأحمد أمين (حياتي) على الرّغم من وجود بعض الكتابات الشبيهة بالسيرة الذاتية في الأدب القديم ك(المنفذ من الضلال) لأبي حامد الغزالي، و(طوق الحمامة) لابن حزم.. غير أنّ الذي يهمننا في هذا السياق هو حضور المذكرات في السير الذاتية حيث تصبح القصص اليومية، أو التفاصيل المهمة جزءاً من سيرة الكاتب وحياته.

**3.5. الرسائل:** من جملة ما يتعرّض له كتاب الرسائل في مكاتباتهم؛ حديثهم عن بعض يومياتهم، وتدوين مذكراتهم ليتشاركوها مع مخاطبيهم، كأن يرسل القائد العسكري إلى مرؤوسيه تقريراً عن يوميات الجند، وسير المعارك، أو يعبر الصديق لصديقه عن مشاعره، مصوراً أحواله، وما يكابده من شوقٍ ولوعةٍ.

**4.5. كتب التاريخ:** تستند الكتابة التاريخية على الوثيقة، التي تؤكد صحة الوقائع وتدعمها بالحجة والدليل، كالأثار والكتابات المختلفة، والمرويات الشفوية... مما يرفع منسوب الحقيقة، ويقربها من درجة اليقين، وعندما يكتب المؤرخ أحداثاً عاصرها فإنه يلجأ -أحياناً- إلى الكتابة المذكراتية محاولاً توثيق تلك الأحداث، متحرّياً الدقة فيحصي الأشخاص ويذكر أسماءهم، ويدون يومياتهم، ويصف علاقاتهم وميولاتهم، مثلما نلاحظ ذلك في (الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني) الذي عاصر مؤلفه تحرير وهران من الاحتلال الإسباني، فسجّل الكثير من الأحداث والتفاصيل عن مُعاينةٍ ومتابعةٍ يوميةٍ مثلما سنذكره.

**6. المذكرات التاريخية في الثغر الجماني:** يعتبر كتاب (الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني) من أهم الكتب التي تحدّثت عن تحرير وهران من الاحتلال الإسباني الذي دام ثلاثة قرون تقريباً، ألفه أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي بنيةٍ تمجيد الباي محمد بن عثمان الكبير، قائد هذا التحرير والمشرف عليه، الذي اقترح على العلماء والمتقنين مرافقة الجند، وأشركهم في هذه الحملة التي دامت عاماً كاملاً (1205هـ-1206هـ) (1791م-1792م)، "فالعديد من المؤرخين شاركوا في توثيق مراحل الفتح، ودونوا أهم لحظاته، بصورة تقترب مما يفعله المراسلون العسكريون في الصحافة الحديثة، خصوصاً بالنسبة لصاحب الثغر الجماني"<sup>4</sup>، الذي دون أهم حوادث هذا الفتح ويومياته.

ورغم أنّ هذا الكتاب يُفهرسُ معرفياً ضمن كتب التاريخ، نظراً لطبيعة المادة التي يقدمها عن وهران منذ تأسيسها، إلى غاية الاحتلال والتحرير، إلا أنّ المطلع عليه لا يجد غضافةً في إعادة تصنيف الكتاب ضمن (أدب المذكرات)، ليس بسبب محتواه فحسب، ولكن بسبب منهجية التأليف، وطريقة استعراض الوقائع، التي تتخذ في الكثير

من مفاصل الكتاب شكلَ تصريحات شاهد عيان، فالمؤلف يعيد تصوير أحداث حصار وهران انطلاقاً من مشاهداته، وقربه من صانعي هذا الحدث المهم، وهو ما دفع محقق الكتاب الشيخ المهدي البوعبدلي لأن يصفه بكتاب مذكرات، فقال: "هو عبارة عن مذكرات دونها مؤلفها الذي كان يعيش في بلاط الباي، وكان ملازماً لوليّ عهده"<sup>5</sup>.

### 7. هندسة المحكي في الخطاب المذكراتي: فخصوصية التجربة في كتابة

المذكرات تجعلها متفردة عن باقي الأشكال السردية المعروفة، بسبب طابعها التسجيلي الذي يفرض توحيّ الدقة، والتحرّي في نقل الأخبار، ممّا يجعل الناحية الجمالية غير ذات أولوية، في مقابل المضمون الذي يحتل المكانة القصوى، من دون أن يعني ذلك تحللاً من الشكل القانوني لمنظومة الحكي التي تقوم على البنيات الأساسية التالية:

#### 1.7. واحدة الصوت: فالنص المذكراتي يخضع لسلطة السارد، فهو الناقل الوحيد

للتفاصيل الحديثة، بيقينية كبيرة، فلا مكان في المذكرات الشخصية للزاوي، أو لظاهرة الإسناد الشائعة في نقل الأحاديث النبوية، والقصص التراثية، فالسارد وهنا ينقل الأخبار من وجهة نظره، مثلما شاهدها، ووفق ما رآها. وعليه فإن نصوص المذكرات في النثر الجماني تنسم جميعها بديكتاتورية المؤلف، فهو المتكلم الوحيد في رسم مشاهد تحرير وهران.

#### 2.7. البنية الحديثة: إن المذكرات بتركيزها على حدث التحرير باعتباره القيمة

الثابتة في النص؛ تحيلنا إلى مفهوم البؤرة (FOCUS)، حيث تتضافر مختلف البنيات الخطابية، والأنظمة الجمالية لصوغ هذا المعنى-الحدث وتقديمه للقارئ بوصفه الخلاص المأمول، والحلم المرجو، والفعل الثوري الذي يستحق الصمود والتضحية كما يظهر في هذه القطعة المقتبسة من المذكرات: "وبالجُملة فَقَدْ جَمَعَ في تِلْكَ المدة القليلة ممّا يُحتاجُ إليه من الجند والصنّاع والآلات ما لا يجمعه غيره في المدة الطويلة، وعلى أنه يجمعه فلا يكون كما كان له، تامّ الشروط حسناً وثيقاً. ولما فرغ من جميع الآلات المدفعية بعث جُلّ عماله وأكابر قواده على أعماله يُنهضون الناس لإصلاح الطرق ويففون عليهم فسهلوا منها ما كان وعراً، وكسروا ما كان حجراً، وقطعوا ما يعرض فيها من الشجر حتى يمكن جرّ المدافع فيها بسهولة، وأحدثوا في الجبل المتصل بالمائدة

طَرِيقاً سَهْلاً لَا تَتَوَقَّفُ فِيهِ الْمَدَافِعُ، وَفِي أَثْنَاءِ الْجَبَلِ فَرَّقُوهُ، فَذَهَبُوا بِطَرَفٍ مِنْهُ إِلَى جِهَةِ الْمَرْسَى وَبِالطَّرَفِ الْآخَرَ إِلَى الْمَائِدَةِ، وَلَمَّا سَمِعَ بِهِ الْكُفَّارُ بَعْدَ انْصِرَافِهِمْ خَرَجُوا إِلَيْهِ فَرَأَوْا مَا حَيْرَهُمْ وَأَدْهَشَهُمْ»<sup>6</sup>

فالعَمَلُ العَظِيمُ يَسْتَحِقُّ أَنْ تَتَجَنَّدَ مَخْتَلَفُ القَوَى للقيام به وإنجاحه، وفي عالم النص يستدعي المكوّن الحَدَثِيّ الرَّئِيسِيّ "التَّحْرِيرَ" مكوّنات حداثيّة فرعيّة ترفده بالمعاني التي تمنحه القدرة على تطوير الخطاب السردِيّ الذي يواكب سيرورة الحدث الرَّئِيسِيّ، وفق هذا الجدول:

الحدث الرَّئِيسِيّ	تحرير وهران من الاحتلال الإسباني
الأحداث الفرعيّة	تخطيط، وتجنيد، وكرّ، وفر، وقاتل وحصار، وانتصار، وخيبة، وخوف وشجاعة، وفتح في الختام

**7-3- البنية الزمانيّة:** مذكرات الثَّغْر الجماني مؤطرة قصصياً بحصار وهران الذي دام عاماً كاملاً، وتطوّرت أحداثه سببياً، من التَّحْضِيرِ، إلى التَّجْنِيدِ، إلى الحصار والقتال، وانتهاءً بالنَّصْر على الأعداء، وقد تتاعَم زمن السرد (في الثَّغْر الجماني) مع هذا التَّوَالِي التَّارِيخِيّ، وكانت هناك محاكاة سردية للواقع بدون أن يتدخّل الكاتب في إعادة هيكلة هذا التتابع. لكنّ الملاحظ أنّ المذكرات كانت تكسر زمن الحكاية بتوقيف سيرورة السرد -أحياناً- عبر اللجوء إلى الاستراحة (Pause)<sup>7</sup>، من خلال استطرادات جانبية لا صلة لها بالحدث الرَّئِيسِيّ، كالحديث عن الثَّوْرَة الفرنسيّة<sup>8</sup>، وعن أسماء الجبل في اللغة<sup>9</sup>.. وهي تقنيّة تكسر الرتابة وتضيف إلى المتلقي معرفة جديدة، وفرائد تنقيفية على طريقة الكتاب القدامى.

**4.7. بنية الفضاء:** مذكرات الثَّغْر الجماني تعاملت مع الفضاء باعتباره رقعة جغرافيّة احتضنت أحداثاً حقيقيّة، وهو ما يضعف الجانب الفني للفضاء فيها ويحوّله إلى مجرد "سلسلة من المحطّات التي لا وظيفة لها، إلّا ضمن ما تملّيه مقتضيات رحلة البطل، من لحظة البداية إلى اللحظات التي تحتضن نهاية القصة"<sup>10</sup>، ممّا يحتم علينا



مقاربة الفضاء في إطار حركة البطل (محمد بن عثمان)، الذي قاد عملية التحرير الطويلة والشاقة ضمن فضائين أساسيين؛ الفضاء الاستهلاكي، وفضاء الفعل الإنجازي.

#### 1.4.7. الفضاء الاستهلاكي: ونعني به النقطة المكانية التي ينطلق منها البطل

نحو فضاءات أخرى، كما يحدد النقطة الختامية لهذه الرحلة، بالعودة إلى نقطة الانطلاق<sup>11</sup>، فقائد الحملة كان مقيماً في مقر ولايته ب(معسكر)، ومنها انطلق وفيها خطّط وحضّر. فالفضاء الاستهلاكي ذو صورة وردية، دينامية، طافحة بالحياة وبالعمران، ويفائض القوة الذي يسمح ل(معسكر) بأن تكون القاعدة التي ينطلق منها المجاهدون نحو فضاءات الإنجاز.

#### 2.4.7. فضاء الفعل الإنجازي: يمكننا أن نتحدث عن فضاء الفعل الإنجازي

عندما يتحرك البطل، ويشرع في أداء مهمته، وهذه المهمة يتولّد عنها فضاءان، فضاء الاستعداد، وفضاء النصر.

#### 1.2.4.7. فضاء الاستعداد: يبدأ فضاء الاستعداد في مذكرات الثغر الجماني

من مدينة (معسكر) التي اعتبرناها فضاء استهلالياً من قبل، لكنّها تستحيل قاعدةً خفيةً لتحرير مدينة (وهران)، ونقطة ارتكاز أساسية عندما تحوّلت النية إلى فعل، الذي تجسّد في العديد من الفضاءات مثل (بلاد الإنكليز) و(جبل طارق) و(المغرب) و(ناحية زواوة) و(ناحية فجيح) ومدن (الجزائر) و(تلمسان) و(مستغانم)<sup>12</sup>.

#### 2.2.4.7. فضاء النصر: يبدأ فضاء النصر في التّحقّق عندما ينهي البطل

مرحلة الاستعداد، ويفصل عن عاصمته (معسكر) في الطّريق إلى (وهران)، التي دخلها الجيش المظفر يوم الاثنين الرابع رجب 1206هـ/ فبراير 1792م، في احتفالات ضخمة، "وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَهَا بَعْدَ الَّذِينَ وَضَعُوا الْأَعْلَامَ وَعَمَّرُوا الْمَدَافِعَ، وَبَنَوْا مِضْرَبَ الْأَمِيرِ-الْعُلَمَاءِ، يَقْدُمُهُمْ صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، ثُمَّ تَلَاهُمُ الْأَمِيرُ فِي جُنْدِهِ الْجَزَّارِ"<sup>13</sup>.

#### 5.7. بلاغة المشهد: قوة الحضور الواقعي في نص المذكرات يجعلنا أمام خطاب

مشهدي؛ كأنه مقتطع من رواية توثّق لمحنة من ملاحم التاريخ، ذلك أنّ الوصف التصويري بمشهد الواقع، ويخلق له نظيراً في عالم الكتابة، فيستحيل النصّ واقعاً جديداً

يطلّ من خلاله القارئ على التاريخ، وعلى مسيرة بطل، تحرّر من القابليّة للضعف والخنوع وانبرى في شجاعةٍ لتحرير وطن، يقول ابن سحنون: "تَمَّ ارْتَحَلَ الْأَمِيرُ -أَدَامَ اللهُ عَزَّهْ- مِنْ (سَيْقُ) يَوْمَ الْجُمُعَةِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ"<sup>14</sup>، بَعْدَ أَنْ حَمَلَ صَاحِبِ الْبُخَارِيِّ فِي رُبْعَةٍ<sup>15</sup> رَائِعَةٍ بَيْنَ صُنْدُوقَيْنِ مَلَائِينَ بِالْكَتُبِ عَلَى بَعْلَةٍ فَارِهِةٍ، وَعَطَى الرَّبْعَةَ بِسَجْفِ حَرِيرٍ مُعَشَّى بِلِبَاسِ الْكَعْبَةِ الْمَشْرِفَةِ، مُوشَى أَحْسَنَ تَوْشِيَةٍ، مَكْتُوبٍ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَيَّنَ لَهُ رَايَةَ رَائِقَةً تُحْمَلُ أَمَامَ قَائِدِ الْبَعْلَةِ، وَأَمَرَ الْعُلَمَاءَ أَنْ يَسِيرُوا وَرَاءَهُ يَقْرَؤُونَ الْبُرْدَةَ وَسَائِرَ الْأَمْذَاحِ النَّبَوِيَّةِ، يَسِيرُونَ بِهِ أَمَامَ جَمِيعِ جُنْدِهِ، فَسَارُوا كَذَلِكَ وَالنَّاسُ يَلْعَبُونَ أَمَامَهُمْ عَلَى الْخَيْلِ الْعِتَاقِ بِالْبَارُودِ، وَكَذَلِكَ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ، وَسَارَ هُوَ -أَيْدَهُ اللهُ- بِجُنْدِهِ الْجَرَّارِ خَلْفَ الْجَمِيعِ، وَكَانَ أَصَاغِرُ أَوْلَادِهِ مَعَ الطَّلَبَةِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَنْ تَرَلَزَلَتْ الْجِبَالُ بِأَصْوَاتِ بَارُودِهِ، وَصَاقَتِ الْفِجَاجُ وَالْبَطَائِحُ بِخَيْلِهِ وَجُنُودِهِ، وَحَضَرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ الْأَعْلَامُ، فَحَرَأَ بِجُنُودِ الْإِسْلَامِ، بِاسِطَةً أَجْنَحَتَهَا لِلْمُصَلِّينَ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ"<sup>16</sup>. فتوظيف البناء المشهدي في مذكرات الثغر الجماني كان عنصراً أساسياً، يخاطب الحواس، ويمسح الأحداث، في قطع سردية تقوم مقام الصور التوضيحية في الكتب الحديثة، مما ينقلها من الحالة الإبلاغية إلى الحالة البلاغية، التي تضيف متعة وتنميماً للقول.

#### 8. وظائف الكتابة المذكراتية: تقع (مذكرات الثغر الجماني) في منطقة وسطى

بين الفن واللافن، فهي من الناحية الوظيفية غير مؤطرة بحدود معلومة سلفاً كسائر فنون القول، إنها نمط من الكتابة البيئية، الذي يطرح الكثير من الأسئلة، ويخوض في مجالات معرفية مختلفة، وهو ما يجعل استخلاص وظائف الكتابة المذكراتية عسيراً وحصراً في غاية الصعوبة، لذلك فإنني لا أعتبر الوظائف التي توصلت إليها نهائية لا مزيد عنها.

#### 1.8. الوظيفة التوثيقية: المذكرات كتبها شاهد عيان لحدث تاريخي ذي أهمية

بالغة في حياة الجزائر، لذلك تعتبر برنامجاً وثائقياً، يقدم شهادة حية عن يوميات حملة تحرير (وهران)، بالتواريخ والأرقام والحوادث وأسماء الشخصيات وأسماء الأماكن وغيرها

من التفاصيل التي تسهل عمل المؤرخين وتقدم لهم المعطيات اللازمة عن هذا الحدث الكبير.

**2.8. الوظيفة الإبلاغية:** إن المذكرات رسالة، فهي خطابٌ يهدف إلى إقامة جسر تواصلٍ مع المتلقي، بهدف تبليغ مضمون معين، فهذه الوظيفة أهم وظائف اللغة، وتزداد أهمية هذه الوظيفة عندما يقدم كاتبها معلومات (حصريّة) من واقع حضوره الشخصي ليوميات هذه الحملة، وملازمته الباي (محمد بن عثمان).

**3.8. الوظيفة التمجيدية:** تبرز في المذكرات شخصية (محمد بن عثمان) بصورة طاغية، فذكره وارد في ثنايا الكتاب كله، بالتصريح أو بالتلميح، محاطاً بهالة من التمجيد والتعظيم كبيرة جداً، فهو قائد التحرير، والمحرّض عليه، والمخطّط له والمشرّف العام عليه، مما يجعله شخصية استثنائية، يمكن وصفها بالشخصية النموذجية.

وعظمة الشخصية النموذجية لا تتأتى من شعورها الذاتي بالتفوق، الذي ربما أدى إلى الغرور، ولكن من فاعليتها في الميدان، وقدرتها على تجاوز مختلف الصعوبات والمخاطر، ما يجعلها متميزة عن عموم الناس، "ويُقاس عمق النموذج بمدى ارتباطه بالحياة، كرصيده المباشر من ناحية، ومدى تجسيم المصير الاجتماعي في ظروفه الفردية من ناحية أخرى"<sup>17</sup>، ولهذا السبب خلع عليه كاتب المذكرات من الألقاب وجميل الأوصاف ما يصعب حصره وعده، فهو "الهزبر الذي كمل به الزمان واعتدل، واستبدل بدره شمساً في دارة الحمل"<sup>18</sup>، ويخصه كاتب المذكرات في مقدمتها بالثناء والمدح الذي نقتطف منه قوله: "وَأَمْتَدَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ الْمُحَالِ، إِلَى أَنْ قَيْضَ اللَّهُ لَهُ الْأَمِيرَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ لِكُلِّ أَكْرُومَةٍ مُفِينًا، وَلِأَنْتِهَازِ فُرْصِ الْخَيْرِ وَأَقْتِنَاصِ سُورِدِ الْمَجْدِ مُتَيْقِظًا، وَعَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ مُثَابِرًا، وَفِي إِصْلَاحِ الرِّعِيَةِ عَلَى ضَرَرِ الْإِلْتِحَامِ صَابِرًا وَمُصَابِرًا، لَيْثَ الْخُرُوبِ، الْمُثِيرِ عَلَى عَدُوِّهِ لَوَاعِجِ الْكُرُوبِ، وَأَمِيرِ الزَّمَانِ، الْمُسْكِنِ رَعَايَاهُ تَحْتَ ظِلَالِ الْأَمَانِ، ذَا الْمَحَاسِنِ الَّتِي يَتَعَدَّرُ إِحْصَاؤُهَا، وَالْمَفَاخِرِ الَّتِي لَا يَتَأْتَى اسْتِفْصَاؤُهَا..<sup>19</sup>

**4.8. الوظيفة العرفانية:** تستند المذكرات على رصيد ثقافي ومعنوي ثري جداً، فهو من الأدوات الحاسمة في صناعة الانتصار والإعداد الذهني والروحي لا يقل شأنًا عن الإعداد العسكري المطلوب، نحو:

- تلاوة القرآن وصحيح البخاري، فقد كان المقاتلون يلجؤون إلى القراءة الجماعية للقرآن الكريم، مع الحرص الشديد على تلاوة صحيح البخاري قبل بداية الحملة وخلالها تبركاً وطلباً للعون والتأييد من الله لدرجة أنهم رفعوا نسخة من صحيح البخاري وزينوها وجعلوها في مقدمة الجيش السائر لاستلام مدينة وهران بعد أن غادرها الإسبان؛

- الأدعية والأذكار والصلوات والثناء على النبي محمد صلى الله عليه وسلم من أهم وسائل الترقية وتقوية الصلوة بالله تعالى، وقد كانت عملاً يومياً يسهم في إعداد المقاتلين روحياً، ويرفع عزائمهم، ويربط على قلوبهم؛

- ترديد المدائح النبوية عند الانتصار شكراً لله تعالى، وتحنناً إليه بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وذلك ما تجسد في المشاهد الختامية للفتح عند إعلان الانتصار؛

- التسلي بالكرامات والخوارق ومنامات الأولياء، الدالة على تدخل العناية الإلهية تثبيتاً لقلوب المجاهدين وتأييداً لهم، منها قول المؤلف: "لَمَّا رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ - وَفِي الْقُلُوبِ مِنَ الْأَسْفِ مَا كَادَ يُفْضِي بِهَا إِلَى التَّلَفِ - سَاءَتِ الظُّنُونُ، وَحَصَلَ الْإِيَّاسُ وَفَرَحَ الْمُزْجِفُونَ، فَرَأَى بَعْضُ الصَّالِحِينَ - وَهُوَ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ الْقَنْدُورِيُّ الْمُسْتَعْنَمِيُّ - كَأَنَّهُ فِي مَكَانٍ مُظْلَمٍ، فَأَخَذَهُ إِنْسَانٌ بِيَدِهِ وَأَدْخَلَهُ مَكَاناً بَهِيًّا، فَإِذَا رَجُلٌ صَبِيحُ الْوَجْهِ بِهِ الْمُنْظَرُ مِنْ أَحْسَنِ مَا تَرَاهُ الْعُيُونُ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا سَيِّدُ مَتَى تُفْتَحُ وَهْرَانُ؟ فَقَالَ لِي: بَقِيَ لِفَتْحِهَا سِتَّةُ أَشْهُرٍ، فَصَدَّقَ اللَّهُ رُؤْيَاهُ، لِأَنَّهُ رَأَاهَا فِي أَثْنَاءِ ذِي الْحِجَّةِ، وَدَخَلَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي رَجَبٍ<sup>20</sup>، وهناك في المذكرات الكثير من الخطاب الكراماتي المرتبط بالأنبياء والأولياء الذي يستجلب النصر والتمكن، ويقدم الدعم اللازم لخوض المعركة؛

- بناء المزارات وأضرحة الأولياء، وهي ممارسات مرتبطة بالتدين الصوفي، الذين يؤمنون بتصرف الأولياء والصالحين في شؤون الناس وحياتهم، دعماً للأخيار وعقاباً للأشرار، مثلما يقول المؤلف: "وَمَا زَالَ الْأَوْلِيَاءُ يَحْضُرُونَ مَلَاحِمَ الْجِهَادِ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا أَمَّا الْأَحْيَاءُ فِيمَا أُوجِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كَغَيْرِهِمْ مِنْ نُصْرَةِ دِينِهِ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِ.. وَأَمَّا الْأَمْوَاتُ فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ تَحْضُرُ إِعَانَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَإِعَانَةً، وَرُبَّمَا ظَهَرَتْ مِنْهُمْ الْخَوَارِقُ"<sup>21</sup> ولذلك قام

القائد (محمد بن عثمان) ببناء الكثير من أضرحة الأولياء في عاصمته (معسكر) و(غليزان) و(مليانة)<sup>22</sup>.

**5.8. الوظيفة الفنية:** تظهر الوظيفية الفنية أو الشعرية (Poetics) كما أطلق عليها ياكوبسون (R.Jakobson) عندما يكون التركيز منصباً على الرسالة من حيث شكلها ودلالاتها، فالاهتمام بهذا الجانب هو الذي يسمو بلغة المذكرات، ويمنحها قدراً من الفنية والجمالية، ومن السمات الأسلوبية الأكثر حضوراً في نص المذكرات نذكر: أولاً-التناس: لن نضيف جديداً بالبرهنة على وجود التناس في مذكرات النثر الجماني لأنّ النقد حسم هذا الأمر، واعتبر تداخل النصوص أمراً بديهياً، "ذلك أنّ النصّ المائل لم ينشأ من لا شيء، وإنما تغذى جنينياً بدم غيره، ورضع حليب أمهات عديدات وتداخلت فيه مكونات أدبية وثقافية متنوّعة"<sup>23</sup>، ومن الطبيعي أن تكون مذكرات النثر الجماني وليدة فسيفساء من النصوص ذات المرجعيات المختلفة. وهي في صورتها النهائية المائلة نتاج عملية إعادة تحويلٍ لكَمِّ هائلٍ من هذه النصوص، على غرار نصوص القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والأشعار، والإجازات، والرسائل، والمدونات الفقهية والصوفية وغيرها وهو ما يعكس مدى انفتاح الخطاب المذكراتي، وقدرته على عقد الصلات المختلفة مع النصوص الأخرى، والدخول في حوار نصوي معها دعماً للرؤيا التي يتضمّنها، وتعصيماً للتصورات الثأوية في المستوى العميق للمذكرات، التي لا يمكن اكتشافها إلا بالحفر فيما وراء المستوى السطحي للخطاب.

ثانياً-الحجاج: إنّ مذكرات النثر الجماني كُتبت أساساً لمواكبة حملة تحرير وهران (1205هـ-1206هـ) (1791م-1792م)، بنية تخليد هذا الإنجاز الهام، وتمجيد قائده انطلاقاً من استعراض خطوات هذا الحدث الكبير وإقناع المتلقّي بعظمة الفعل ومشاركته شعور الدهشة والانبهار الذي سيطر على الكاتب وهو ما يستدعي إستراتيجية إقناعية تستفيد من كلّ المؤكّدات المتاحة، لغوية أو غير لغوية، على غرار:

- المؤكّدات الأداةية نحو استخدام (إنّ، وأنّ، ولام التوكيد، ولام الجحود، واللام

المزحلقة..)؛

- المؤكّدات المفرداتيّة مثل (التّوكيد اللفظي والمعنوي، المفعول المطلق، وصيغ المبالغة، وأسماء التّفصيل، وصيغتي منهي الجموع..)؛
- المؤكّدات الأسلوبية مثل (الافتباس، وأسلوب القسم، والقصر، والتّخصيص والتّقديم والتّأخير، والطّباق والمقابلة..)؛
- المؤكّدات الثّقافية مثل (القياس، والاستدلال، والاستقراء، والمقارنة..).
- ثالثاً- التّنظيم الإيقاعي: تنتمي مذكرات النّثر الجماني إلى عصر أدبي شاع فيه التّقليد، والانشغال بالزّخارف اللفظية والمعنوية من السّجع والتّجنيس والمطابقة وسائر المحسنات البديعية، وهي ظاهرة سيطرت على الخطب والرّسائل والمؤلفات الأدبية وغيرها، حتى عناوين الكتب لم تتجّ من هذه الظّاهرة فقد أطلق ابن خلدون على مؤلّفه التّاريخي (كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر)، فالاهتمامُ بشكل الدّوال وتنظيمها لم يكن يختلف عن الاهتمام بالمدلولات ومقاصدها، فذلك من الطّبيعي أن نقرأ على ظهر مذكرات ابن سحنون هذا العنوان المسجوع (النّثرُ الجُماني في ابتِسَامِ النّثرِ الوهراني)، وهو عنوان موسيقي يتألّف من بنيتين إيقاعيتين هما (النّثر الجماني) و(النّثر الوهراني)، اللذان يرتبطان بعنصر حيادي من الوجهة الصّوتية وهو (في ابتسام).
- إنّ خاصيّة التّكرار المتجسّدة في هذا العنوان تسهم في هندسة البنية الإيقاعية بما تنتجه من عناصر متماثلة، فقد تكرّرت الوحدة اللغوية (النّثر) مرتين بمعنيين مختلفين، فالنّثر الأولى بمعنى "ما تقدّم من الأسنان"<sup>24</sup>، والثّانية بمعنى "موضع المخافة من فروج البلدان"<sup>25</sup>، وهو ما يحقّق بلاغياً مفهوم التّجنيس الذي يقوم على التّشاكل الصّوتي والاختلاف الدّلالي، كما نجد تماثلاً صوتياً بين (جماني=//0/0) و(وهراني=//0/0/0) عبر المقطع الصّوتي الأخير (ني=//0)، وهو ما أطلقت عليه البلاغة العربيّة السّجع المطرّف، الذي "اختلفت فاصلتاه في الوزن واتفقتا في التّفقيّة"<sup>26</sup>
- إنّ التّنظيم الإيقاعي يمنح العنوان -بالإضافة إلى الوظيفة التّعينية المطلوبة- وظيفة ثانوية تتعلّق بإغراء الجمهور (Seduction of public)، الذي يلتقط هذه الإشارات الصّوتية، ويتفاعل معها بإيجابية، ممّا يؤدي إلى ربط صلات ذهنية وانفعالية مع

العنوان، بما يحقّق قيمتين، "قيمة جماليّة تنشطر بوظيفته الشعريّة التي يبنيها فيه الكاتب وقيمة تجاريّة سلميّة تُنشطها الطّاقة الإغرائيّة التي تدفع بفضول القراء للكشف عن غموضه وغبابته"<sup>27</sup>. وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة في العنوان (الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني).

وبعيداً عن العنوان نجد بأنّ المذكرات - على مستوى المتن- كانت وفيّة لأساليب الكتابة التقليديّة السّائدة في العصر العثماني، بمحافظتها على التّنظيم الإيقاعي، من خلال توالي الأصوات، وتردّد مقاطعها على نحوٍ مخصوص، يحترم انتظام الحركات والسّكنات، اعتماداً على السّجع بوصفه الظّاهرة الإيقاعيّة الأقدر على تمثيل هذا النّعم الموسيقيّ الذي هيمن على لغة المذكرات من بدايتها إلى نهايتها. فالتّشكيل الإيقاعي يؤكّد حضوره بدءاً من التّقديم الاستهلالي للمذكرات، متمثلاً في ضربين من ضروب السّجع الثّلاثة<sup>28</sup>:

الضّرب الأوّل-السّجع المُطرّف: وهو ما اختلفت فاصلتاه في الوزن واتّفقتا في التّفقيّة<sup>29</sup> نحو قوله تعالى: ﴿مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ [نوح: 13-14]، وهو أكثر أنواع السّجع حضوراً في المذكرات، لِمَا في اختيار الفواصل من السّهولة واليسر، وما في اختيار أوزان المفردات من التّكّلف والجهد، مثلما يظهر في هذا الجدول:

أُخِذَ مِنْ يَدِ الْإِسْلَامِ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَى نُورِهِ غَيَابَاتُ الظَّلَامِ	السّجع المطرّف
لَا يَخَافُ مِنْ رُقِيَّائِهَا، وَلَا يَحْذَرُ مِنْ طَوَارِقِ الْأَقْدَارِ وَأَنْبِيَاءِهَا	
وَيَبْتَبُ وَنَبَّةَ الْحَرِّ لِانْتِزَاعِهِ مِنْ أَوْلِيكَ السَّكَّانِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ مَحْضِ حَقِّ اللَّهِ الَّذِي تَجِبُ لَهُ الْمُبَادَرَةُ بِالْإِمْكَانِ	

ثانياً-السّجع المتوازي: وهو ما اتفقت فيه الفِقرتان في الوزن والتّفقيّة، نحو قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية: 13-14]<sup>30</sup>، وقد تردّد هذا اللون الموسيقي سبع مرّات، كما يظهر في هذا الجدول:

يُكَدِّرُونَ مَوَارِدَهُ، وَيَحْمُونَ مَطَارِدَهُ	السّجع المتوازي
وَجُنُودُهُ تَجُوسُ خِلَالَ حَرِيمِهِ، وَتَمْنَعُهُ مِنْ قَضَاءِ غَرِيمِهِ	
وَكُفْرُهُمْ يَرْتَسِفُ نَعْرَ عَقِيلَتِهِ، وَيَبِيْتُ مُفْتَرِشًا فِي حَمِيلَتِهِ	

قَدْ نَامَ عَنْهُ مَنْ يُصَاوِلُهُ، وَعَجَزَ عَنْهُ مَنْ يُرِيدُ إِزْعَاجَهُ وَيُحَاوِلُهُ
ثُوَاصِلُهُ إِذْ ذَاكَ وَتُسَاعِدُهُ، وَتَقْرُبُ مِنْهُ وَلَا تُبَاعِدُهُ
لَمْ يَزَلْ يَمُدُّ إِلَى الْوَلَاةِ أَيْدِي الطَّلَبَاتِ، وَيُخَاطِبُهُمْ بِالسَّنَةِ الرَّغَبَاتِ
فَلَا يَجِدُ لِصِرْخَتِهِ مُجِيبًا قَدْ جَبَلَ عَلَى الْكَرَمِ، وَلَا يَلْقَى غَيْرًا يُرُدُّ يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحَرَمِ، فُصُورًا حَدَّثَ فِي الْهَمَمِ، وَقَشَلًا شَمَلَ سَائِرَ الْأُمَمِ

فتطير المذكرات بالأسلوب السجعي -زيادة على كونه متمشياً مع نمط الكتابة في العصر العثماني- فإنه يعكس رغبة من الكاتب في أسلبة (Stylization) المذكرات وتقديم مادة تاريخية في قالب فني يقترب من لغة الشعر، رغم صعوبة ذلك من الناحية الموضوعية، لأن المذكرات ذات الطابع التاريخي تفترض الدقة والمباشرة في التعبير والتحرر من قيود الإيقاع الذي يشكل أحد مرتكزات الوظيفة الشعرية التي تقوم على العدول عن الأساليب المألوفة، وترتبط باللامباشرة والغموض.

**خاتمة :** هذه الدراسة هي مغامرة بحثية حاولت أن تقتحم مجالاً أدبياً أتصور أنه ما يزال بكرة في النقد العربي، وهو الكتابة الذاتية، هذا الجنس الذي يضم فن السيرة الذاتية، واليوميات، والمذكرات، ويمكنه أن يشمل المدونات الإلكترونية، والحسابات الشخصية على الفيسبوك، وسائر ما ينشر على منصات التواصل الاجتماعي، حيث تصبح الذات مركز الاهتمام، والموضوع الرئيس للكتابة، فالالتفات إلى الذات ليس انكفاءً وانطواءً بقدر ما هو التفات إلى عظمتها، ودورها في قراءة العالم، وتصوير الأشياء، في عالم بالغ إلى حد الإسراف في نقل أفكار الآخرين وتدارسها وتوارثها، ظناً بأنها هي العلم الذي يجدر بالناس رؤية العالم من خلاله.

إن الكتابة الذاتية، تعيد للذات مجدها وكينونتها، بأن تجعلها في مقابل العالم وجهاً لوجه، بلا وسيط ولا رقيب، فهي نوع من الكتابة "الديمقراطية"، التي تمنح المؤلف هامشاً كبيراً من حرية التعبير وحرية التشكيل، فيتحرر الكاتب من جميع الإكراهات سوى ما يمليه عليه الضمير، ويحطم قيود الكتابة المتعارف عليها، ويصوغ أفكاره وفق الأسلوب



الذي يروقه، متسلحاً برؤيته للعالم، وللآخرين، متخذاً هذه الرؤية شاهداً، يوثق مرور الذات على هذا العالم.

وضمن هذا المسار ولدت مذكرات "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، تمدّ خيوط الوصل إلى التاريخ والدين والثقافة العامة، من دون أن تفرط في هويتها الوثائقية التي تتابع تفاصيل يوميات الجيش المقبل على تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني، في رصدٍ يشبه ما يقوم به المراسلون العسكريون في زماننا، بأسلوب يعتمد دقة المؤرخ وروحه التواقفة للموضوعية في نقل الأخبار، وهو ما يؤكد حرص الكاتب على الجانب الوظيفي للمذكرات، من دون إهمال الجانب الأسلوبي الذي اتسم بالتقليدية وغياب التجديد، محصوراً في ثلاث سمات أسلوبية، وهي التناص، والحجاج، والإيقاع فالتناص يسمح بالانفتاح على مخزون هائل من النصوص المحفوظة في ذاكرة المؤلف والحجاج يوفر المنظومة الإقناعية اللازمة التي تضيف قوة لطرولات الكاتب وأفكاره. أما التنظيم الإقناعي فموسيقى داخلية تخفف من النبرة الخطابية للخطاب المذكراتي وتقربه إلى دائرة الفن، والكتابة الإبداعية.

لا أريد أن أقنع القارئ بأدبية الخطاب المذكراتي في (الثغر الجماني)، فذلك مرمى دونه خרט اقتاد ولكنني أطمع في نقل صورة من داخل المذكرات، محاولاً توصيفها بقراءة محايدة، تقرأ النص بالنص، عسى أن أتمكن على طريقة الأطباء في الكشف الأشعاعي، من الوصول إلى البنيات المضمرة في النص، والكشف عن قوانين صناعة الخطاب المذكراتي، انطلاقاً من الثغر الجماني، آملاً أن يكون النموذج الأصح للوصول إلى قلب الخطاب المذكراتي في التراث العربي.

وما دام والشيء بالشيء يذكر، أودّ التشبيه إلى أنّ التراث الجزائري يضمّ العديد من الكتابات التي أرى بأنها من جنس المذكرات، رغم مشكلة التصنيف والفهرسة التي قد تضللّ القارئ فينسبها إلى أجناس أدبية أخرى، وهو ما أظنّ بأنني أحببت عنه في أول هذه الدراسة، وعلى سبيل التمثيل أذكر كتاب التحفة المرضية لابن ميمون ومذكرات كلّ من الأمير عبد القادر والشريف الزّهار، وكتاب المرأة لحمدان خوجة وغيرهم ممّن مزجوا الكتابة التاريخية بالتقرير الميداني الذي يرجع إلى الوقائع العينية والمشاهدات

المباشرة، ممّا يمكن أن يتيح للنقاد والباحثين قراءتها قراءة جديدة، وفق مناهج التحليل الأدبي، بعيداً عن القراءة التاريخية التي استنفدت هذه النصوص، وحوّلتها إلى وثائق أرشيفية في يد المؤرخين.

### الهوامش:

- <sup>1</sup> رينيه ويليك-أوستين وارين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987م، ص 247.
- <sup>2</sup> ابن منظور، لسان العرب مادة (ذ.ك.ر).
- <sup>3</sup> حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، (د ت) ص 12.
- <sup>4</sup> حبيب بوزوادة، دور علماء معسكر في تحرير وهران من الاحتلال الإسباني، مجلة عصور جديدة، جامعة وهران، الجزائر، المجلد 18 العدد 1، جوان 2019، ص 162.
- <sup>5</sup> الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر 2013، ط 1، ص 14.
- <sup>6</sup> السابق ص 256-257.
- <sup>7</sup> "أما الاستراحة، فتُكوّن في مسار السرد الروائي توقعات معينة يُحدّثها الراوي بسبب لجوئه إلى الوصف، فالوصف يقتضي عادة انقطاع السيرورة الزمنية، ويعطل حركتها" حميد لحميداني، بنية النص السرد من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، 1991، ط 1 ص 75.
- <sup>8</sup> الثغر الجماني ص 231.
- <sup>9</sup> السابق ص 280.
- <sup>10</sup> سعيد بنكراد، السّمائيات السردية ص 173.
- <sup>11</sup> السابق ص 173.
- <sup>12</sup> انظر تفصيل ذلك في الثغر الجماني ص 255.
- <sup>13</sup> السابق ص 478.
- <sup>14</sup> جمادى الثانية 1406هـ / 1792م.



- 15 رُبْعَةُ المصحف: صُنْدُوقُهُ.
- 16 الثَّغْرُ الجماني ص474.
- 17 صلاح فضل، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، دار المعارف، القاهرة، 1995م، ط5 ص121.
- 18 الثَّغْرُ الجماني ص135.
- 19 السابق ص97.
- 20 السابق ص318.
- 21 السابق ص302.
- 22 السابق ص141.
- 23 محمد عزام، النَّصُّ الغائب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001 ص9.
- 24 الصَّحاح في اللغة مادة (ث.غ.ر).
- 25 السابق.
- 26 أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، دار ابن الجوزي، القاهرة، 2010م، ط1، ص293.
- 27 عبد الحق بلعابد، عتبات جيران جينيت من النَّصِّ إلى المناص، منشورات الاختلاف الجزائر، 2008م، ط1، ص85.
- 28 يغيب في هذا المقطع الضَّرْبُ الثَّالِثُ وهو السَّجْعُ المرصَّع، "وهو ما اتفقت فيه ألفاظ إحدى الفقرتين أو أكثرها في الوزن والنَّقْفِيَّة كقول الحريري: هو يقرع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه" جواهر البلاغة ص293، لكن هذا الضَّرْبُ حاضرٌ بصورة نادرة في المذكرات نحو "أَعْرَاضُهَا صَوْبِيَّةٌ، وَأَعْرَاضُهَا جَمِيْلَةٌ" الثَّغْرُ الجماني ص98.
- 29 جواهر البلاغة ص293.
- 30 السابق ص294.